مجلة اللغة الوظيفية:Issn 0967-2437 المجلد8،العدد1 2021

الحقيقة العارية لتموقع الأنثى حداثيا بين الانغلاق والانعتاق

قراءة ثقافية في مضمون رواية امرأة "على قيد سراب" لمصطفى بوغازي

The nakedtruth of a modernized female positioning between closure and emancipation

A critical cultural reading in the content of Mustafa Bougazi's novel" A Woman on a restriction

صليحة تباني*

[1] جامعة لونيسي علي البليدة 2(الجزائر)

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية،

tebbanisaliha@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/04/23	تاريخ القبول:2021/05/19	تاريخ النشر:2021/06/25

الملخص:

أسهم الإرث السوسيوثقافي في تنميط صورة هامشية عن المرأة، المتبنى من لدن الخطاب النقدي المابعد حداثي والملغم بمكاشفات ضدية تنم عن اعترافات إيديولوجية تدحض الحضور الأنثوي وتعري صورة المرأة المشيأة التي أُستؤسدت بطريركيا وذاتويا.

لذا أرنو من خلال دراستي هذه إلى إزاحة ستار الحقيقة المسرطنة للراهن الثقافي المتمادي في تنفيقها وإقناعها بالمركزية الوهمية، ومناهضة الهيمنة والتعنت الذكوري والمطالبة بتموقع أنثوي هوياتي لا حضور إغوائي تسلعي.

الكلمات المفتاحية: الأنثى الحداثية، الهامش، التشيؤ، المركزية الوهمية، الراهن الثقافي.

* **المؤلف المرسل**

Abstract:

The socio-cultural heritage contributed to the stereotyping of a marginal image about women,which adopted from the context of postmodern critical discourse that mined by counter-disclosures which denote ideological confessions that refute the female presence, and expose the image of the reified woman who has always been patriarchically and subjectivelydominated.

So, through my study, I aim to remove the veil of the carcinogenic truth of the persistent cultural current in hypocrisying the woman and convincing her of the delusional centralism to combat the domination and masculine intransigence ,and to demand a feminine positioning of identity rather than a seductive merchandising presence.

Key words: the modernist female,the margin, reification, the delusional centralism, the cultural current

توطئة:

تمثل الأنثى موضوعا مركزيا في الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية لما تحمله من رموز نفسية واجتماعية كمحور في الفاعلية التنويرية، حيث تقتضي استحضار المسكوت عنه واستنطاقه في كل الثقافات المحملة برؤى متجانسة معبرا عن الواقع الذي يمجد الذكورة المتعالية التي تبرهن فحولتها أمام الكائن الأنثوي الضعيف المنكسر والمنتزع للكينونة الإنسانية؛ سواء في المخيال الماضوي أو الواقع الراهن الذي سيج لها معتقلا فكريا سحق كرامتها وحجّم حريتها، بالرغم من الإغراءات التي رسمتها مرحلة ما بعد الحداثة المتسمة بالموضة الفكرية التشيئية التي خطت فضاء استقلاليا وهميا للمرأة على وجه الخصوص، ترى فيه ذاتها ومستقبلها كما يتبدى لها، ولكن يبطن استلابا وجوديا لكيانها وكرامتها، بأن موضعها كعلكة في فيه الذئاب، ما جعلها تعيش نفاقا اجتماعيا فسح لها المجال الواسع كفريسة للتحرر، في حين يضيق لها الفضاء الأسري آفاقها بجعلها امرأة عفيفة، ممتنعة عن مخالطة الآخر، إذ تتنكر لذاتها، فتعيش منفصمة الشخصية، تخدع نفسها قبل أن يخدعها المجتمع والعولمة.

ماهية الأنثى الحداثية:

انتقلت الأنثى الحداثية من التهميش العلني إلى التهميش الضمني، فقد كانت قبل ذلك مسلوبة الحقوق، أما حاليا فيبدو جليا مشاركتها في صنع المجتمع سوسيوثقافيا، إلا أن الخبايا تشيئية، إذ لا يخلو أي مجال من غزو المرأة لا ككيان وجودي وإنما كجسد تسلعي صنمي تطمس من خلاله ذاتها، فتبعث

كائنا نمطيا تتسيده النزعة الاستهلاكية الآداتية يعاني الفراغ العاطفي، فقد "أقصت نفسها طويلا عن مركز حياتها النفسية وجعلت من الرجل مركزا تدور حوله انشغالاتها، بحيث أضحت آخر، تفتقد لغياب الرجل مبرر وجودها، تعيد الآن ترتيب علاقاتها مع نفسها ومع العالم حولها، ومن ضمن ما يتغير موقع الرجل في حياتها" (حفناوي، 2009).

لذا أرى أنه لابد من بلورة خطاب فكروي يناقض هامشية الأنثى ويقوض لها رؤى مركزية تواجه البنى المجتمعية المتقادمة ذات الاستلاب الذكوري والإرهاب المجتمعي، الذي يشوش مكانتها ويدعي صيانتها، متلبسا هالة تثاقفية تعقّد كيانها وحضورها المجتمعي، ولابد من مراجعة المنظومة الفكرية الوجودية ونظرتها إلى الأنثى المغيبة في إطار الفكر التحرري، الداعي إلى انبثاق المرأة كذات فاعلة في المجال الثقافوي وحضورها الإنساني لا الحضور الجسدي كما تصوره الثقافة المعاصرة، التي تجعلها في خدمة الشيء، إذ تمارس على جسدها سلطة الاستبداد الناعم الذي يفرض عليها قامة جسدية معينة تزين لها ذاتها المرغوب فيها فيبدو أكثر جاذبية وإغراء لذا لابد من "وجود أنوثة جوهرية لدى النساء يمكن استحضارها" (رسول، دت)، لتعزز مشاركتها في الرفع من مستوى رهانات التطور والتأكيد على دورها في المساهمة في تبني قضايا الأمة والعمل على بنائها، فتؤدي بذلك إلى دحض الهيمنة الذكورية وتأسيس مجتمع مساواتي يؤمن بمشاركة المرأة في الطرح المجتمعي والرؤى الإنسانية، بعيدا عن مستنقع المصطلح الرجولي ذي البنية الهرمية حيث يرى **كينيث ووكر** أن "جهل الرجل بالمرأة لا يعني جهله بجسم المرأة ورغباتها والوظائف الفيسيولوجية للجنس فحسب، ولكنه يعني أيضا الجهل بما هو أهم وأخطر، ذلك هو الفهم الإنساني للمرأة كإنسان مثله تماما" (السعداوي، 1990)، حيث تكمن حفريات المجتمع الذكوري المشرقي في ازدراء المرأة وقمعها وحرمانها من أبسط حقوقها بعد تحويلها لأداة تشبع رغباته، في حين يتظاهر بالاهتمام بها فـ "ما إن تتبدى معالم الخصوبة في الفتاة، وتبرز مفاتن الأنوثة على جسدها الفض، حتى تظهر مظاهر الحصار فتحرم من عبارات التدليل وزيارات الأقارب أو الاقتراب من الباب لترى العالم الخارجي" (بوغازي، 2019)، فيتعرى نسق المرأوية المضمر المكتنز بين طيات هذا النص الروائي المضموني وما يلغمه السياق السوسيوثقافي وما يهيكله من رؤى وأفكار تدعي التنوير، ولكن تضمر نزوعات مخاتلة تنادي بدونية المرأة وتجهر بفوقيتها، ما أدى إلى تنشيط الحركة النسوية "الرامية لخلخلة المفاهيم الاجتماعية التقليدية القائمة على التمييز الوظيفي بين الرجل والمرأة على أساس بيولوجي وذلك ما أدى فعلا إلى الكشف عن الخلل، ولكنه لم يؤدِّ إلى إلغائه وانتقلت الرغبة إلى إزالة التمييز الوظيفي على أساس الجنس إلى تفضيل المرأة وتمجيد الأنثى مما يهدد بالعودة إلى الدوران في الحلقة المفرغة ذاتها، فالادعاء بأن الأنثى هي الأصل لا يختلف تماما عن الادعاء بأن الرجل هو الأصل،

وهكذا" (حفناوي، 2009)، لذا فإذا طالبنا بحقوقية المرأة وحريتها، لابد لنا من المطالبة بتحرير العقلية المجتمعية البطريركية، القامعة لتعاليم الدين الإسلامي الذي نادى بتعزيز المرأة والرفع من قيمتها بعد أن كانت "تتحمل شتى صنوف القهر والإذلال" (بوغازي، 2019)، فالمرأة كانت ولازالت مخلوقا قاصرا رغم التطور والحداثة التي تنم عن تشييء ذاتي ومعاملة سلعية نفعية تنقص من كيانها، من خلال حضورها المكثف في شتى مجالات الحياة، والاحتفاء المبالغ فيه بها، الذي يحيل على صورة من صور الدونية التي تتبدى في انكشافها الجسدي والظاهري مثلما تظهر في لوحات الإعلانات والإشهارات والموضة وغيرها من صور يتشيع بها الرجل تحت أي صيغة تحمل تشظٍ لذات المرأة؛ فقد "نجحت الثقافة الذكورية على مدى القرون في إقناع النساء عامة بأن طموحهن الفكري ليس إلا انحرافا عن طبيعتهن، أو نشاطا ذكوريا نبت خطأ في طبيعة الأنثى، ويجب أن تستأصل كما يستأصل البظر" (السعداوي، 1990) في بعض الثقافات، بالرغم من التطور الحداثي الزائف والثقافة المعاصرة، تنبثق حقيقة الحداثة السرابية كفعل عادل بين الجنسين إلا أنه يظهر فعلا ذكوريا يحمل ثقافة تحقيرية ضد المرأة، حيث يعتبرها كائنا ناقصا بيولوجيا ومعرفيا وحتى عقائديا واختزالها في قضية الاستغلال والحب والاستغفال، التي تترجمها البطلة في سذاجتها أمام العديد من الذكور؛ هذا المصطلح الذي يليق بخنوثتهم واتخاذهم مواقف لا رجولية لتبدأ بحبيبها الكذوب الذي التقت به خلسة في مقهى شعبي وتمكن بخداعه ومكره أن يستغل طيبتها وعفويتها ورغبتها في تأسيس عش زوجية بأن يأخذ أموالها ومجوهراتها تحت غطاء الاحتيال في أن يسدد مستحقات السكن الذي يأويهما مستقبلا، ما جعلها تتفانى في خداع نفسها وأهلها وتثمين كذبات ملفقة فليت ما تمتلكه كان من نصيب الكمين الإرهابي الذي يظهر احتياله، لا أن تكون من نصيب شيطان في زي شاب وديع، فتراها تتجرع مرارة الخذلان "كيف سولت لي نفسي أن أقدم على هذا الفعل الطائش...كيف أسمح له بأن يأخذ مجوهراتي، وما ادخرته من مال يقاسمني ويقاسمني راتبي الشهري؟ لقد أخذت قرضا استهلاكيا لصالحه من البنك أسدد أقساطه بالخصم من أجرتي لسنوات" (بوغازي، 2019)، بعد أن تبين أنه متزوج وأب لطفلين ويعيش حياته بشكل عادٍ.

فبالرغم من التحضر الثقافي للمرأة وتعلمها إلا أن صفة الطبيعة طغت عليها، وجردتها من فطنتها وثقافتها باسم الحب إن لم نقل الجنس تحت معقل الزواج، فيرى الغذامي أنه "لم تعد المرأة ذاتا لغوية أو ثقافية ولكنها صارت مجرد موضوع أو أداة رمزية قابلة للترصيف والترميز والتحميل الدلالي الذي يدور دائما حول قطب مركز هو الرجل" (الغذامي، 1996)، فالرجوع إلى تموقع الأنثى ماضيا وحاضرا يكشف المخبوء ويدفع إلى الانكشاف أمام ردع حقيقة تموضع الأنثى المفعم بمشاعر الإحباط والتهميش والعنف

حتى وإن قامت المرأة باستحداث التغيرات الاجتماعية والثقافية لإثبات ذاتها وفي صناعتها للتاريخ في ظل تجاهل لأفعالها وأفكارها، وفي تقبلها لماهية الزواج إلا أنها ترضخ لطبيعتها في كثير من الأحايين.

الأنوثة والحب:

لا يمكن أن يخلو أي مجال أو فضاء من حضور أنثوي سواء في البيت أو المجتمع والحب يمثل اللغز الذي يباغت متلبسه، فهو غالبا ما يحفه التحدي والمغامرة في مواصلة العلاقة التي غالبا ما تنتهي بطريق مسدود، حيث عدت الأنوثة "مجموعة من الصفات المنسوبة إلى الإناث المجنسات بيولوجيا فإن ماهية تلك الصفات بالضبط، وإلى أي حد تكون أية طبيعة مفترضة من الأنوثة طبيعية أو ثقافية قد غضها لسجال طويل وحاد من قبل النساء أنفسهن" (ديفيد، 2008) وأكبر جرم قد ترتكبه المرأة أو قد تتورط في حباله هو الحب الذي تعتبره الأنثى "أرقى عملية يمارسها الإنسان لأن من خلالها نستسيغ مكوناته الجسمية والعقلية جميعا أن تمارس أعلى وظائفها وأعمقها تغلغلا في كيان الإنسان، الحب عملية واعية فاهمة عميقة بل لعلها العملية الوحيدة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يصل إلى أعمق أعماق شخصيته" (السعداوي، 1990) فقد جسدت رواية امرأة على قيد سراب انقياد الأنثى وراء وهم الحب الخادع، حيث صورت شخصيات أنثوية ضحين بالغالي والنفيس في سبيل الحب الذي سلبهن كينونتهن وجردهن من وجودهن وحضورهن الاجتماعي، حيث جمع بين "الممكن والمستحيل، والمتوقع واللامتوقع والمقدس والمدنس والمنطق واللامنطق والموت والحياة" (بشوشة، 2004)، فلم تكن حنان فقط من اكتوت بجمرة الحب، فها هي ذي أختها سعاد التي "مولت رحلة عشيقها في هجرة سرية نحو الشمال وهي تحترف الانتظار" (بوغازي، 2019)، ففراغ والدهم العاطفي وانشغاله بأعماله الشعوذية التي تدر عليه بأرباح طائلة جعلهن يلجأن إلى غرائزهن وانفتاح أبواب مشرعة على ذواتهن وقلوبهن كمحطة بنزين تستقبل كل من يريد أن ينهل منها، بالإضافة إلى أن حالتهم المادية الميسورة قد سهلت لهم سبل الانحراف.

فلم تتعظ حنان من خداع عشيقها واستغلاله المادي لها تراها تصدق كذبته المبصوقة على وجهها في أنه طلق زوجته بعد تلبسها في خيانة مع عشيقها، حيث مثّل الدور بمهارة أسفرت عن سقوط دمعات أثرت فيها وفي سذاجتها اللامتناهية مرفقة "فأجهشت ببكاء لحاله وارتميت في حضنه، كبديل وعنوان للوفاء والاحتواء، لم أشعر لحظتها بأي دفء ينبعث أو إحساس يتدفق تجاهي، بقدر ما كنت أرصد الفرح يتراقص في عينيه كلما فتحت حقيبة اليد وسلمته مبلغا معتبرا" (بوغازي، 2019)، حيث يبدو جليا استئساد الذكر على الأنثى البسيطة حتى وإن كانت مثقفة واستغبائها اللاأخلاقي الذي حولها إلى أداة

يتحكم فيها كيفما يشاء، في مقابل فرارها إلى حضنه وهروبا من الإرهاب المجتمعي الذي مورس على أم حنان ما جعلها تتخذ سبلا مغايرة لما فطرت عليه بحثا عن الحرية الوهمية في فضاء ملغم بالخبث البطريركي فنلمس تشكل "المنظور البنيوي تجاه فعل الذكورة في سياق سردي رئيس يتكون من خلال استحضار العلاقة بين المستعمِر (الرجل) والمستعمَر (المرأة)، إذ يعد النقد النسوي المرأة الباحثة عن حريتها وإنسانيتها مستعمَرة الرجل المتسلط والقمعي على وجه العموم، لذلك تظهر صورة الرجل عموما في أنساق نمطية قائمة على استغلال المرأة واضطهادها بأساليب عنف عديدة" (مناصرة، 2013)، فبالرغم من مشاركة المرأة في القضايا المجتمعية وخروجها إلى التعليم إلا أنها لا تزال مستهجنة ومهمشة يحبذ تعريتها وإسقاط ذاتها.

المرأة ومواقع التواصل الاجتماعي:

تمثل الأنوثة عند **سارت جامبل** "مجموعة من القواعد التي تحكم سلوك المرأة ومظهرها وغاية القصد منها جعل المرأة تتمثل في تصويرات الرجل عند الجاذبية الجنسية المثالية" (جامبل، 2002)، فتلجأ الأنثى إلى طرق اختلاسية تمكنها من معاينة تلك التصورات عن بعد، فكان الواقع الافتراضي مسرحا تتحرر فيه المرأة من النظام الاجتماعي الذي يرمقها بطاقات سلبية تؤثر في فكرها وبأسها، مما جعلها تنفلت من واقع العبودية المفروضة إلى العبودية الطوعية التي جذرت فيها ثقافة الاستلاب والتبعية التي أقنعتها بالدونية والشعور بالسلبية والمعاناة الوجودية والإقصاء، إثر تعرضها للتعنيف الأسري والمجتمعي، وهذا ما انطبق على حنان التي فرّت بكيانها إلى العالم الماورائي، خاصة وأنها مطلقة بابنة أيضا، إذ تعرفت عبر الفضاء الأزرق على شاب يصغرها بعامين؛ هذا الأخير الذي شخّص لها مستقبلا يوتوبي مطّردة "فتحتُ له باب قلبي فوجدته يصغي إلي باهتمام يانع ويواسيني، كما يزف قوافل الأمل محملة تتلمس طريقها في بيدائي" (بوغازي، 2019)، فبالرغم من التظلم والقهر اللذان مورسا عليها من قبل العديد من الذكور حضوريا إلا أنها لم تتعظ، فمورس عليها الاستغلال إلكترونيا حيث كان أكثر فضاعة من الواقع، فقد خيل إليها أنها تتمتع بحرية أكثر مما عليه؛ ولكنها لم تنتبه أنها تتخفى وراء حساب وهمي يوغلها في اللاموجود في واقع افتراضي تهافتت عليه كل فئات المجتمع باختلاف مستوياتهم وثقافتهم الفكرية، إذ لم تقوَ على مواجهة مستغلها الافتراضي الذي رسم لها جنة عرضها السموات والأرض، وصور لها عالما فردوسيا، طالما كانت تتخيله وتحلم بالعيش فيه معترفة "كان يحملني على أكف الحديث كفراشة يحرص على صيانة هشاشتها، يخفض لي جناحه ليحلق بي في عوالم تنسيني عذابات واقعي" (بوغازي، 2019)، الجحيمي الذليل الذي رمت نفسها فيه بمحض إرادتها بدافع الحب والمستحيل، فأرادت أن تنتشل ما بقي من نفسها المكسورة واقعيا لتعيش واقعا افتراضيا تزعم تحقيقه منكرة

تعميم حقارة الذكور، إذ تتبدى لها أنّ "العلاقة بين الرجل والمرأة لا تبنى فقط على التفاوت والتفاضل. ولا تقوم دوما على التنازع والتخاصم. فهي قد تكون كذلك في حال تطرُّفها، أي في طرف أقصى أطرافها. كما يمكن أن تكون، في الطرف المقابل مبنية على المودة المحضة والمحبة الخالصة. إذ منتهى التضاد والتلاقي. والضدان يلتقيان بقدر ما يتنابذان ويتباعدان. كما أن المتحدين يتنافيان ويتباعدان بقدر ما يتقاربان و يلتصقان" (حرب، 1990)، فاتخذت الفضاء الأزرق ملجأ تعبر فيه عن ذاتها ومشاعرها لرجل يصغرها سنا وهو مناف للعرف الواقعي، هذا الولد الذي ضحك عليها واستغل سذاجتها بعد أن ارتدى لباس التقوى والعفاف، حين طلب منها مبلغا من المال "مدعيا أن بطاقته للسحب المغناطيسي فقدت صلاحيتها ويحتاج إلى مال" (بوغازي، 2019)، فلم تتردد في منحه إياه؛ ذلك السلاح الذي ظنته سيجلب لها السعادة والراحة لأنه كان نقطة سوداء في حياتها عكرت صفو براءتها ولطختها بحبر الخذلان والمهابة الذكورية السادية التي لم تسلم منها واقعا ولا افتراضا والتي ولدت لديها عنفا نفسا سلبها ذاتها ودمر أنوثتها.

لم يتكشّف الرجل الافتراضي عن ذئبويته أمام حنان التي ظنت أنها ربحت رهان طومبولا رجل مثقف حنون وأمين، مما جعل منها أنثى محدودة الأفق ودنيئة لدرجة أن سقف طموحها زواجها من ذكر حقير، بالرغم من أنها امرأة متعلمة مثقفة ومربية أجيال فحضور المرأة المكثف حتى وإن كان ظاهريا يثير انكسار الرجل نفسيا ويشعره بالخذلان لمساواة المرأة به في كل شيء، فنجده ينتقم لذاته منتقصا من قيمتها بأي شكل من الأشكال، فقد أعاد لها أموالها وواظب على الاهتمام بها بتوطيد علاقته بها ليعيد الكرة في استعارة مبلغ مالي كبير هذه المرة بحكم أنه تاجر في بيع السيارات، وأنه لقي صفقة مربحة لا يمكن تجاهلها فتستجيب بكل غباء لطلبه وتمنحه ما يريد علّه يخرجها من قنوطها لترتطم بحد لا منفذ له وحقيقة مرة أفقدتها لذة الحياة ولذة الرجل عامة، فقد "تخلص من شريحة هاتفه وأغلق حسابه في موقع التواصل الاجتماعي ويمكن أن يكون منتحلا لشخصية ما" (بوغازي، 2019).

فبقدر بساطة المرأة وانصياعها واقعيا إلا أنها تصل إلى حد البلاهة الافتراضية التي صنعت من المرأة كائنا لا يفكر، أقرب ما يكون إلى الجماد (الشيء)، وفي المقابل صنعت من الذكر السادي كائنا لا موجوديا ينم عن حقارته وتشيؤه، سيما وأنه لم يذكر لا باسم ولا بهُوية، وهذا ما يوحي بعدميته الإنسانية والرجولية.

فعلى كل المجتمعات الثقافية التي تدّعي مساندة حرية المرأة والأخذ بيدها المركزية من خلال نسج خطابات دفاعية عن جنس الأنثى والتي تختزل في مجملها جسد الأنثى وحضورها الجنسي، فتدفعها إلى

المركز الذئبوي منافسة الرجل كما صورها الفضاء الاستشراقي بأن ينتصر لمسيرة المرأة المدنسة دون مطالبتها بذلك أو دفاعها عن ذلك، فمن غير المنطق أن يتنكر المجتمع وتتنكر الثقافة لجُلّ المجتمع (المرأة) فمن علم طفلا فقد علم رجلا ومن علم بنتا فقد علم أمة.

المرأة الشيء:

لابد من الخوض في رؤية فكرية شاملة تهدف إلى معالجة المجتمعات العربية والغربية في تقصي صورة المرأة المختبئة وتعريتها في ثنايا التاريخ، فأغلب الممارسات النقدية التي خاضت في هذا الموضوع شخصت وضعية الأنثى سيما العصرية التي باتت تستغل، بالإضافة إلى تموقع هويتها دون الخوض في غمار البدائل والاستناد إلى نماذج حية كتعظيم الإسلام للمرأة حين بجلها الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفها بالمؤنسة الغالية بالرغم من مساواتها للرجل في الحقوق والواجبات ما يزيد عن ألف وأربعمائة سنة، في حين لم تؤخذ المرأة بعين الاعتبار ولا في ديانة أخرى.

إذ أن الكل ينادي بوجودية المرأة والاعتراف بحضورها من خلال مشاركاتها الثقافية المنسوبة إليها اعترافا من الجانب الظاهري واحتكارا ضمنيا، مما اضطر بالعديد من النساء إلى إحداث ثورات ضد تكبيل المرأة وتملكها، فالتف حول هذه الثورة العديد من الرجال أمثال محمد بنيس الذي يرى أن "ثورة المرأة هي الثورة الفريدة التي انتصرت في كل مكان سلمية منذ الخمسينيات؛ سفور، تقرير في شؤون العائلة، سياحة في شاطئ، رفض الزوجة الثانية" (مفقودة، 2009)، تتبدى مطالب المرأة مادية سلعية، لم تطالب بالحضور الإنساني ولا بمساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات، وإنما حصرت ثورتها في أمور حقوقية من شدة قهرها وتهميشها ظنتها انتصارا واستردادا للوجود الذي طالما رضخت فيه لتسلط الآخر والانغلاق الهوياتي واحتكار كيانها في جسدها الذي يمثل "أحد تمثلات الذات، وغياب التعبير عن الجسد إنما يمثل إقصاء لكينونة الذات التي تتخذ من الجسد تموضعا لها لتسكنه فإقصاء الجسد إنما هو تهميش للذات ومسبب لانتهاز كينونتها، فإقصاء الجسد يكتمل بالانفعال والفكر والرغبة واللذة جميعا، وبغياب أي عنصر من هذه المكونات يصير الإنسان ناقصا" (هويدا، 2015)

فالجسد الأنثوي الحداثي لم يمثل أحد تمثلات الذات وإنما هو الذات بعينها حيث اتسم هذا العصر بتأليه الجسد والتمركز حوله إعلاميا وثقافيا، فبالرغم من التحضر الظاهري إلا أن جسد المرأة لا زال يستهوي الذكور ويضعفون أمامه ويلجؤون إلى المادة لاستهوائه وينجحون في غالب الأحايين، إذ تعبر حنان وهي في مرحلة الفتوة عن رغبة جارها في جسدها المفعم بالأنوثة باستدراجها ماديا "فما إن استوثق من مخدر النقود بأن مفعوله قد سرى في كياني، حتى باشر في تخطيط مخططاته على خريطة

جسدي...وكان أكثر الرصيد من الشغف يصب في لثم شفتي، السر الذي أدركته يوم أن زارنا ضابط متقاعد...ركن سيارته للحظات وهو يلثم شفتي بوهج حرارة أفقدته برودتهما المنعشة" (بوغازي، 2019)، فقد كانت الأنثى تكبر وهي تشيئ جسدها بمقابل مادي بخس، فتشب وتكبر ذليلة كسلعة يتقادم عليها الكثير وينفر منها ما إن تصبح بالية أو مستعملة.

كما انطبق حضور الأنثى جسديا على دعاء ابنة حنان التي كانت أمها ترضخ لمتطلباتها الكثيرة ورغباتها اللامتناهية، فقد كانت تعبد جسدها من خلال ارتداء أغلى الثياب والمساحيق وتدرس في مدارس خاصة لتشعر بالراحة المادية، فقد كانت بذلك مشيأة بدرجة أنثى شيء كما كان لها حضور جسدي "بقامتها الممشوقة وجمالها الذي بدأ يستفز العيون، وكيف يمسح العابرون جسدها بنظرات في خلسة أو عن قصد بغية سرقة لحظة إمتاع من زمن هارب" (بوغازي، 2019)، فلم يقتصر تشييء المرأة في الرواية على الجسد أو اللذة الجسدية وإنما تعدى إلى تعشقها للآلة ولمواقع التواصل الاجتماعي، الذي سيطر عليها فأدمنته لتتسع الهوة بين دعاء وبين أمها التي أفنت شبابها توفر سبل الراحة لها، فقد كان العالم الافتراضي بالنسبة لها "حبل نجاة" (بوغازي، 2019) ولم تكن دعاء الوحيدة من ركنت ذاتها للعالم الآخر بل حتى أمها ألّهت هذا الفضاء الخرافي واللاموجود بأن منحت له ذاتها ووجودها ومالها بمجرد تعرفها على الشاب مجهول الهوية والتقائها به مُقرّة "تكررت هذه الإطلالة بين ضفتين متباعدتين، تصبغ أيامي بدردشات تتعدى الهزيع الأخير من الليل أو تلامس الخيوط الأولى من الشمس" (بوغازي، 2019)، فانقياد المرأة للآلة والفضاء الافتراضي الذي حرك عواطفها الجنسية، وأظهر شهوتها في صور جريئة تشييئية جعلها متاحة للجميع حسيا ومعنويا وماليا، يهين كرامتها وينافقها بطرق غير مباشرة.

فكثير من النساء من تنادي بأنسنة المرأة ومساواتها للرجل لكن مضمون احتياجها تشييء لذاتها مثلما فعلته "علياء المهدي التي نشرت صورها عارية من خلال مدونتها على الفضاء الإلكتروني هو نوع من التظاهر بالجسد أو الاحتياج لهذا الجسد لكن في حقيقة الأمر هذه النظرة الساحرة هي إلا امتداد لتسليع جسد المرأة أو تشييئه" (هويدا، 2015) فبقدر ما ادعت المرأة إنسانيتها غرقت في تشييئها وتسلعها وتنميطها في ظل التقانات الحضارية وعصر الموضة الذي زين لها جسدها، فاتخذته وسيلة للظفر بمكانة اجتماعية.

فليست كل النساء متشيئات إلا أنهن جُلّهن يقعن في فخ التشيؤ الجسماني والمعلوماتي الذي خططت له العلمانية الرأسمالية وطوقت بواسطته العالم، سيما العربي والإسلامي.

خاتمة:

لا تزال قضية المرأة إشكالية تاريخية تضرب بجذورها عميقا في الحياة الإنسانية لتتربع على عرش الأدب ما بعد الحداثي، باعتباره انكب على دراسة كل ما هو هامشي، ونظرا للمكانة الدونية للمرأة قديما وحديثا بالرغم من إثبات ذاتها في مواجهة الهيمنة الذكورية إلا أنها وهبت ذاتها للفضاء الوهمي والترشيد الإلكتروني الذي حولها إلى آلة، فاستنكرت ذاتها وساعدت المجتمع الذي فطر على تهميشها وتسليعها وجعلها في خدمة الشيء من خلال هذا الطرح خلصت إلى عدة نتائج:

- بالرغم من حضور الأنثى الحداثية في شتى المجالات إلا أنه حضور ظاهري تشيئي ينغص حريتها وينافق وجودها السوسيوثقافي.
- أسهم النقد النسوي في إعطاء رؤى مشبعة بالتوق إلى الحرية الكاملة إلا أن الأنثى أقصت ذاتها حين حصرتها في حريتها الجسدية التي جعلت منها سلعة استهلاكية.
- الثنائية الضدية الأنثوية الهامشية والذكورية البطريركية نتج عنها رجلا مخنثا وأنثى مسترجلة.
- لابد من المطالبة بالحضور الأنثوي الإنساني لا الحضور الجسدي الجنساني الذي قلب موازين النقد النسوي وشعاراته المثالية.
- بالرغم من التمازج الثقافي والتطور الفكري لاتزال الأيديولوجيات السوسيوثقافية تسيطر على فكر الأنثى وتعتبرها إنسانا نصفا رغم غزوها وحضورها الكلياني.
- لابد من إزالة التناقض الأنثوي الذكوري والمناداة بالفكر الأنسني بعيدا عن العنصرية الجنسية ولا حتى العرقية والثقافية.

قائمة المراجع

بعلي حفناوي. (2009). مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد البنيوية قراءة في سفر التكوين النسائي . الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف.

بن جمعة بشوشة. (2004). الرواية النسائية أسئلة الاختلاف والتلقي. الجزائر: وزارة الثقافة مديرية الثقافة لولاية برج بوعريريج.

حسين مناصرة. (2013). قراءات في المنظور النسوي. الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

سارة جامبل. (2002). النسوية وما بعد النسوية دراسات ومعجم نقدي. (أحمد الشامي، المترجمون) مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

صالح مفقودة. (2009). المرأة في الرواية الجزائرية. الجزائر: دار الشروق للطباعة والنشر.

صالح هويدا. (2015). الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية. مصر: رؤية للنشر والتوزيع.

عبد الله الغذامي. (1996). المرأة واللغة. المغرب: المركز الثقافي العربي للنشر.

علي حرب. (1990). الحب والفناء، تأملات في المرأة والعشق والوجود. سوريا: دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع.

غلوفرد بلان ديفيد. (2008). الجنوسة والجندر. (حسن عدنان، المترجمون) سوريا: الناشر دور الحوار للنشر والتوزيع.

محمد رسول رسول. (دت). الأنوثة الساردة قراءة سيميائية في الرواية الخليجية. مصر: دار التنوير للطباعة والنشر.

مصطفى بوغازي. (2019). امرأة على قيد سراب. الجزائر: خيال.

نوال السعداوي. (1990). دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي. الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار فارس الفارس للنشر والتوزيع.